الخطاب الثقافي

مجلة دوريّة ، محكّمة ، تصدرها جمعية اللهجات والتراث الشعبي في جامعة الملك سعود بالرياض

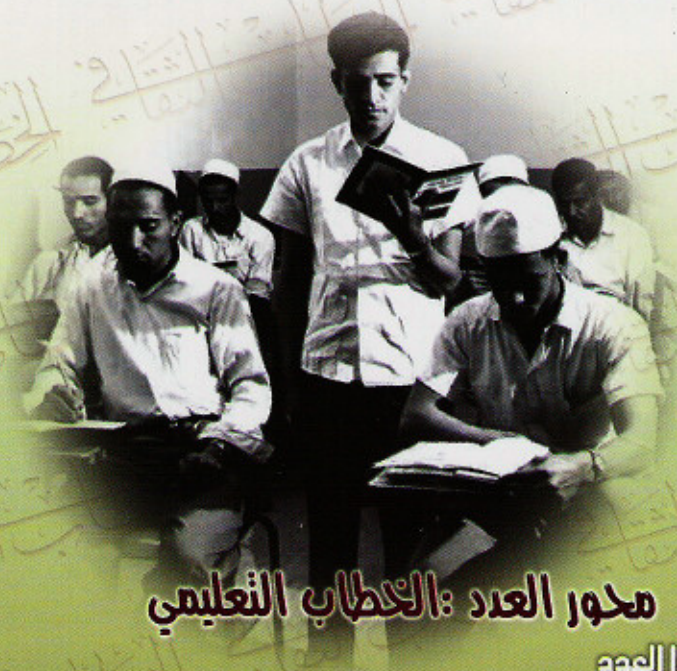

محور العدد : الخطاب التعليمي

نقرأ في هذا العدد

- فالح العجمي: نموذج عن خصوصية التجربة السعودية
- محمد صاري: المصطلح اللساني من التأسيس إلى التدريس
- خالد بسندي: محاولات التجديد في النحو العربي
- محمد فجال: أثر التدريس بالفصحى على مستوى الناشئة

كما نقرأ

- نعمان بوقرة: النص الإشهاري
- عبدالله الفيفي: أسطورة في جبال فيفاء
- عبدالله العسكر: التاريخ الشعبي
- أبو عبدالرحمن ابن عقيل: أصول لغة الشعر العامي

ملف العدد : محمد العبودي- العلامة الموسوعي.

العدد الثالث خريف ١٤٢٩ هـ -٢٠٠٨ م

بين أسطورة (امْحَمْ عُقَيْسْتَاء) في جبال فَيْفاء وأسطورتي (كَلْكَامش) و(أوديسيوس *Odysseus*)

(قراءة مقارنة)

د. عبدُالله بن أحمد الفـيْفي*

– 1 –

امْحَمْ: محمّد.

وعُقَيْسْتَاء: عُقَيْصَاء، لعلّه من عَقَصَ: فَتَلَ. وهم في لهجة فَيْفاء يقلبون الصاد كعادتهم (س+ ت): "عَقَسْتَ". ويصعب وصف حركة هذه السين في اللهجة كتابةً، إذ لا يعبّر عنها السكون، ولا الفتح " عَقَسَتَ"؛ من حيث هي صوت مندغم في التاء، كأنهما صوت واحد، هو في اللهجة مقابل صوت الصاد.

– 2 –

من أساطير جبال فَيْفاء الشعبيّة أسطورة مشهورة بقصة (امْحَمْ عُقَيْسْتَاء). وهو كما يُروى من أهل (مَدَر)، وهم قبيلة في الجبل الأسفل من فَيْفاء، كانت لهم في فَيْفاء الرئاسة والمشيخة.

وتُنسب إلى امْحَمْ عُقَيْسْتَاء "جُوْرَة" (بيت خَرِب) ما زالت معروفة إلى اليوم في مكان اسمه (رقاعة)، في جهة مكان يسمى (امعرضية/ العرضية).

---

* عضو في مجلس الشورى السعودي، ومتخصّص في الأدب القديم.

تقول القصّة: إن **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء** هذا كان رجلًا مباركًا في اعتقاد قومه، أو "صوفيًّا"، كما يصفون، بوجهه يستمطرون السماء. وكان له أخ أصغر منه. في ذات صباح ذهب ذلك الأخ عند جماعة يشتغلون في إحدى المزارع. فزوّدتهم امرأة بالغداء، فلقيها الغلام في أثناء الطريق لإحضار الغداء. ناولته المرأة الإناء من مكان عالٍ، فسقطتْ قطرة عَرَق من جبينها على جبهته، دون أن يَشْعُر. ولمّا أحضر الغداء وجد أصحاب المزرعة رائحة "**خَرُوْش**"(1) تلك المرأة فيه، فاتهموه بها، أنه قبّلها.. وربما.. وربما.... فتآمروا في قتله، فقتلوه، ورَدَمُوا على جثّته التراب في المزرعة التي كانوا يعملون فيها، ولم يطّلع على فعلتهم أحد.

ولمّا أقبل المساء ولم يَعُد الغلام إلى بيت **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء**، جعل يتحسّس من أخيه، ويسأل الجيران، لكنّ أحدًا لم يعلم إلى أين ذهب.

بعد أيّام من البحث والسؤال دون جدوى، قرّر **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء** أن يسيح في الأرض بحثًا عن أخيه المفقود، لعلّه قد هاجر إلى بلدٍ ما. أعدّ للأمر عدّته، وزوّد زوجته وابنتها الصغيرة بما يلزمهما من نفقةٍ في غيابه، ومن ذلك أن اشترى لهما سبع كِسًى لسبع سنوات قادمة. إذ قال لزوجته إنه لا يعلم متى سيكون إيابه، غير أنه قد أَذِنَ لها بالزواج إنْ مرّت السبع سنوات ولم يَعُد. ثم مضى يطوّف الأرض في نشدان أخيه.

ويزعم بعضهم أنه كان في إحدى مراحل بحثه قد فكّر في اصطناع جناحين من أَدَم، كي يطير بهما، محلّقًا، مستطلعًا مكان أخيه من الجوّ. طار حتى إذا بلغ مغرب الشمس فدنا منها، ذاب الجناحان بفِعل حرارة الشمس، فسقط إلى الأرض، لكنّ

---

(1) الخَرُوْش: ما كانت تضعه المرأة الفَيْفيّة من لطائم الطيب وألباب النباتات العطريّة بين شعرها، تلمّه عليه في كتلتين، عن يمين رأسها ويساره، كأنها على رأسها سناما عطرٍ صغيران، يتضوّعان حيثما كانت. ولعله سُمي بهذا الاسم لأنه خلاصة أطياب مسحوقة مخلوطة؛ جاء في (الزبيدي، تاج العروس، (خرش)): "الخُرَاشَةُ... ما سَقَطَ من الشَّيْءِ إذا خَرَشْتَه بحَدِيدَة ونَحْوِها، على القِيَاسِ كالنُّجَارَةِ والنُّحَاتَةِ... والخَرْشُ:... ج خُرُوشٌ."

لطف الله سخّر له ملائكة تلقّفته ورفعته إلى السماء. هنالك قابل أخاه في الجنّة، فأنبأه بقصة مقتله. لكنه طلب إليه أنْ إذا عاد إلى الأرض أنْ يكتفي بأخذ دِيَته من لدن قاتليه، ولا ينتقم أو يطالب بثأر، كي يبقَى له بذلك الأجر العظيم عند الله. كما أخبره أنه كان قبل موته قد وكّل غرابين ليدلّا الناس على المكان الذي دُفن فيه، وأنهما ما يزالان ينعبان ليلًا ونهارًا ويطيران من ذلك المكان إلى شجرةٍ مجاورة ثم من الشجرة إلى ذلك المكان. فأوصاه بإكرامهما وشكرهما على وفائهما بما أوكله إليهما.

وقد اتّفق، بينا **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء** يحمل وصيّة أخيه في طريقه هابطًا إلى الأرض، إذ وقف على موزّعي السحاب والأمطار من الملائكة. فطلب إليهم أن يستوصوا بنصيب قسمٍ معين من بلاد أهل (مَدَر) بمزيدٍ من المطر، وكان قد أضرّ بها المَحْل. رجاهم أن يمنحوا تلك الجهة زيادة ولو بمقدار ما يحمله رأس "مِسَلَّة"- أي إبرة خياط- من الماء. فحذّره الملائكةُ أن هذا المقدار كبيرٌ جدًّا، وأنّ من الأصلح أنْ يرضَى بما قدّروه هم. لكنه ظلّ يلحّ في الطّلب، زاعمًا أنه أعرف بحاجة البلاد والعباد إلى الماء، ولاسيما بعد تلك السنين من الجفاف. فكان ذلك- كما تزعم القِصّة- سببًا في خراب ذلك المكان من **فَيْفاء**. وهي أرض معروفة إلى اليوم لدى أهل تلك الجهة ما تزال "سِحَاءً"[2] من آثار السيول.

(2) سِحاء: جمع سَحْيَة، ويطلقونها على: المكان المنهار من جانب جبل. وقد جاء في (ابن منظور، لسان العرب، (سحا)): "سَحَوْتُ الطِّينَ عن وجْهِ الأَرض وسَحَيْته إذا جَرَفْته... السَّحْو: الكَشْف والإزالة... والسّحا والسَّحاة والسُّحاءَةُ والسِّحاية: ما انْقَشَر من الشيء كسِحاءَةِ النَّواة والقرطاس. وسيلٌ ساحِيةٌ: يَقْشِرُ كلَّ شيء ويجرُفه... والساحية: المَطْرة التي تَقْشِر الأَرض، وهي المطرة الشديدة الوَقْع."

ثم هبط **امحَمْ عُقَيْسْتَاء** في غيمة خفيفة- أو "ثَمَلَة"[3] كما يسمونها- إلى الأرض، ليحطّ في (حَيْفَة)[4] تُسمّى (**حَيْفَة امبقَر**)، معروفة باسمها إلى اليوم.

وتزعم الحكاية أنه كان قد أُمِر في السماء بأن يمضي ولا يلتفت أبدًا، مهما حَدَث، لكنه لمّا وَصَل **حَيْفَة امبقَر**، إذا بجَلَبَة عظيمة وراءه، فلم يتمالك نفسه من الالتفات، وإذا بالحَيْفَة خلفه مكتظّة بالبقر، ما أن التفتَ حتى ساختْ في الأرض واختفت.

ثم لمّا بلغ البئر القريبة من منزله ألفَى صبيّة تسقي. فسألها عن شأنها، وعن أبيها وأمّها، فحكتْ له أن أباها غائب منذ سنين، منقطعة أخباره. فعَلِم أنها ابنته، لكنّه كَتَمَ أمره.

ثم دعته الصبيّة إلى منـزلها، لِمَا رأته من سوء حاله وجوعه وبَرْدِه. وأعلمته أن عُرسًا في تلك الليلة سيُقام لأُمّها. قالوا: فأَخَذ امحَمْ عُقَيْسْتَاء خاتمه فجعله في فم إداوتها[5] التي كانت قد ملأتْها بالماء، قائلًا لها:

---

(3) غيمة خفيفة، كأنها ثُمالة من سحاب. ذلك أن "الثُّمْلة والثَّمَلة والثَّميلة والثُّمالة: الماء القليل يبقى في أسفل الحوض أو السِّقاء أو في أيّ إناء كان." (ابن منظور، لسان العرب، (ثمل)). وقد يَرِد اللفظ في الفصحى بالسين: (سَمَلَة)، فمن كلام علي رضي الله عنه- في التزهيد في الدنيا-: "فلم يَبْقَ منها إلا سَمَلَةٌ كسَمَلَةِ الإِدَاوَةِ، أو جُرْعَةٌ كَجُرْعَةِ المَقْلَةِ." (عليّ بن أبي طالب، نهج البلاغة، اختيار: الشريف أبي الحسن محمّد الرضيّ بن الحُسين الموسوي، عناية: صبحي الصالح (بيروت: دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، 1982)، 89.

(4) حَيْفَة: مدرّجة زراعيّة، جمعها: حِياف، وحُيُوف، وحِيَف. ربما سُمّيتْ (حَيْفَة) لأنها تُجعل مائلة إلى داخلها قليلًا لحفظ مائها عليها، فالحَيْفُ: المَيْلُ، أو لأنها تُحَدّ من حافتها الخارجيّة بما يُسمّى الزَّبير، وهو: ارتفاع ترابيّ ممتدّ، يُجعل عَقْمًا للماء؛ فالحَيْفُ: الحَدُّ، والجَمْعُ: حُيُوفٌ. كما أن الحَائِفُ مِنَ الجَبَلِ: بمَنْزِلَةِ الحَافِةِ، وجَمْعُه حُيُفٌ وحُيَف. وربما سميت حَيْفة لأن الماء "يَحِيف" فيها، أي يجتمع ويحير؛ فهم يقولون في اللهجة: "حاف الماء يحيف". (وانظر: الزبيدي، تاج العروس، (حيف)). وجاء فيه: "الحَائِفُ: الحَائِرُ، هكذا في النُّسَخ بِالحَاءِ المُهْمَلَةِ، وهو غَلَطٌ، صَوَابُه الجِيم، كما هو نَصُّ اللَّيْثِ... والحِيفَةُ، بِالْكَسْرِ: النَّاحِيَةُ، ج: حِيَفٌ... وذُو الحِيَافِ، ككِتَابٍ: ماءٌ بَيْنَ مَكَّةَ والْبَصْرَةِ." وتدلّ اللهجة على أن ما عدّه الزبيدي غلطًا ليس بغلط، و(ذو الحياف) شاهد على ذلك.

(5) إداوة: قربة ماء. وهم ينطقونها: "داوة".

- "هذه إذن هديّتي المتواضعة بمناسبة زواج أُمّك، ولتكن مفاجأتها، ولا يطّلعن عليها أحدٌ سواها".

ضحكت الصبيّة لهذه الهديّة المتمثّلة في خاتمه الصدئ، لكنها قَبِلَتْها على كلّ حال.

ثم تَبِع الرجلُ الصبيّة إلى المنزل، مثّاقلًا بتعبه وسوء حاله. هنالك لم يعرفه أحدٌ من الضيوف الحاضرين، لِمَا كان قد لحق به من هزال شديد، ومسّته من وعثاء سفر، وكآبة منظر. وما أن فتحتْ أُمّ الصبيّة فم الإداوة حتى اندلق الخاتم مع الماء.

- "هذا خاتم رجل "طرشي"(6)، "يان"(7)، وجدتُه عند البئر، فلمّا عَلِم أن الليلة حفل زواجك طلب منّي أن أقدّم إليك خاتمه هذا هديّة. "غَمَّني"(8) مِن بَرْد هذه الليلة المطيرة فدعوته للُقْمة عشاء ودِفاء." (قالت الصبيّة لأُمّها).

عرفتْ الأُمّ خاتم زوجها، إلاّ أنها أسرّت أمره. وفيما كان الرجال يعدّون وليمة العشاء، كانت السماء "ما تزال تسحّ ما تسحّ من دموعها الثقال".

---

(6) طُرْشِيّ: فقير متسوّل، جمعه: طُرُوْش. يقولون: طَرَشَ، يَطْرُش: أي سعى في مناكبها، كالمتسوّل. وطارشة: فقير. وجاء في (الزبيدي، تاج العروس، (طرش)): "تَطَرَّشَ الناقةُ من المَرَضِ، إذا قامَ وقَعَدَ، مِثْلُ ابْرَغَشَّ. وتَطَرَّشَ بالبَهْمِ: اخْتَلَفَ بِهَا... وقَال المَعَرِّيُّ في عَبَثِ الوَلِيدِ: الأُطْرُوشُ يَقُولُ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ: لا أَصْلَ لَهُ في العَرَبِيَّةِ، قَالَ: وقَدْ كَثُرَ في كَلامِ العامَّةِ جِدًّا، وصَرَّفُوا مِنْهُ الفِعْل، فقالُوا: طَرِشَ إِلخ، ثُمَّ قال: وأُطْرُوشٌ: كَلِمَةٌ عَرَبِيَّة، ويُمْكِنُ أَنَّ مَنْ أَنكَرَه لَمْ تَقَعْ إِلَيْهِ هذِهِ اللُّغَةُ." ولا تُستخدم هذه المادة في اللهجة في معنى الصَّمَم، بل في معنى الفقر والدروشة والسّعي في طلب الرزق من فقر، فالأقرب إلى هذا ما قيل من قيام وقعود الناقِهِ، أو اختلاف راعي البَهْمِ بها. ومنه سُمّي البَهْم في بعض البادية: طَرْشًا. ولعل المعنى اللهجيّ لغةٌ لم تُسجَّل. وطَرْشَة: شِدَّة شراهة. يقولون: "بفُلان طَرْشَة"، أي: لا يَشْبَع. وواضح اللُّبّ الدلاليّ، المتعلّق بحالة الجوع والفقر، بين: طارْشَة، وطُرْشِيّ، وطَرْشَة.

(7) يان: في اللهجة بمعنى يا أُمّي.

(8) غَمَّني: أشفقتُ على حاله، وأحزنني أمرُه، وأصابني الغَمّ لأجله. والتعبير فصيح؛ جاء في (الأصفهاني، أبي الفرج، الأغاني، تح. لجنة من الأدباء (بيروت: دار الثقافة، 1983)، ج23: 410)- مثلًا: "كان المنذر بن ماء السماء قد نادمه رجلان من بني أسد، أحدهما خالد بن المضلّل، والآخر عمرو بن مسعود بن كَلَدة، فأغضباه في بعض المنطق، فأمر بأن يُحفر لكلّ واحدٍ حفيرة بظَهر الحِيرة، ثم يُجعلا في تابوتين، ويُدفنا في الحفرتين، ففُعل ذلك بهما، حتى إذا أصبح سأل عنهما، فأُخبر بهلاكهما، فندم على ذلك، و(غَمَّهُ)".

- "عَزّ الله يعزّ[9]، ما أشبه مطر هذه الليلة بليالي المحَمْ عُقَيْسْتَاء!" (قال أحدهم.. واتفق مع رأيه الآخرون، فقد كانت ليالي المحَمْ عُقَيْسْتَاء ليالي أمطار وغيثٍ وبركة، كما تقدّمت الإشارة).

والرجل يصغي إلى كلامهم من زاوية في المكان. ثم حينما حان إنزال "البُرَم"[10] العشاء عجز مجموع الرجال الحاضرين عن إنزال البُرَم من فوق الأثافي.

- "أعطوني "امقاتّة"[11] وأنا أُنزلها لكم!" (قال المحَمْ عُقَيْسْتَاء).

التفتوا إلى صوته، متضاحكين من بؤس هيئته وظرفه.. لكنهم وافقوا أن يعطوه فرصة ليتفكّهوا بطرافة الموقف.

وَقَف الرجل ومدّ يده متناولًا من مكان ما قد خَبرَه أَوَاقِيَ[12] ليديه يتوقّى بها حرارة القدور. فدهشوا، وأخذوا يتلافتون: "كيف لهذا الغريب أن يعرف مكان الأواقي المخصوص من البيت؟!"

ثم إذا به يحمل البُرَم واحدة تلو الأخرى فينـزلها. فزاد دَهَشُهم، وأدركوا أن في الأمر سرًّا.

ثم لمّا فَتَحوا القدور، إذا باللّحم كلّه في كلّ قدر قد التصق بقَعْره، أي قد صار كلّه "قاتّة"، وهو ما كان طلبه الرجل مقابل مساعدته إيّاهم. عندها تأكّد لهم أن الرجل ما

---

(9) عَزّ الله يَعَزّ: تعبير يُقال عادة للتعجّب.

(10) البُرَم: جمع بُرْمة، وهي القِدْر العظيمة، وقيل: القِدْرُ مطلقًا. وهي في الأصل المُتَّخَذَة من الحَجر المعروف بالحجاز واليَمن. (انظر: ابن منظور، لسان العرب، (برم)).

(11) امقاتّة/ القاتّة، في اللهجة: ما يلتصق بقَعْر القِدْر من طعام. وجاء في (ابن منظور، لسان العرب، (قتت)): "قَتَّه: جَمَعَه قليلًا قليلًا. وقَتَّه: قَلَّله. واقْتَتَّهُ: اسْتَأْصَلَه... التَّقتِيتُ: جمعُ الأَفاويه كُلِّها في القِدْر وطَبْخُها".

(12) الأواقي: جمع واقية، وهي ما يُتخذ من قماش أو نحوه للوقاية من حرارة القِدْر. قال مهلهل بن ربيعة:

ضرَبَتْ صدرها إليَّ وقالتْ يا عَدِيًّا لقد وَقَتْكَ الأواقي

وفي اللهجة يسمّونها: امتَوَاقِي، (أي: التَّوَاقِي)، جمع تَوْقاية.

هو إلاّ امْحَمْ عُقَيْسْتَاء.. وها قد عاد. فانصرفوا مكسوفي البال. وبذا لم يتمّ عرس زوجة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء.

- 4 -

وبعد أن استقرّ امْحَمْ عُقَيْسْتَاء في أهله عَمِل على تنفيذ وصيّة أخيه: أولًا، بمكافأة الغرابين اللذين وجدهما قد ضَوِيا أشدّ الضَّوَى حتى انتتف ريشهما، إذ كانا ما ينفكّان طيلة تلك السنين يتناوبان الطيران والنعيب بين شجرة هناك وجانب من إحدى المزارع، حَفَرَ امْحَمْ عُقَيْسْتَاء فيه فوجد عظام أخيه المقتول. فذَبَح للغرابين ثَوْرَه، وحَمَى لحمه لهما دون سائر الطيور، كِفاء وفائهما بما أوكله إليهما أخوه.

ثم واجه قَتَلَة أخيه، مطالبًا إيّاهم بدفع الدِّيَة، كما أوصاه أخوه. فاعترفوا بجريمة القتل، واتّفقوا معه على تسليم الدِّيَة إليه منجّمة.

استمرّوا على ذلك حتى لم يبق إلاّ قِسْط أخير. فلمّا ذهب ليتقاضاه من أحدهم أبدا له العُسر، وعَرَضَ عليه أن يختار أحد فَرِيْرَين[13] كانا في مربطٍ لديه مقابِل ما تبقّى من دِيَة. وافق امْحَمْ عُقَيْسْتَاء، ثم أَخَذَ بالفَرِيْر يجرّه بصعوبةٍ، والرجل من ورائه يدفعه بقوّة، وهو ينازعهما الحبل لا يريد الحراك. فيما الفَرِيْر الآخر ما يَفْتُر يهذي، و"يُناتع"[14]

---

(13) الفَرِيْر: الكبش، والجمع: فُرار، وفُرّان. ومن معاني الفَرِيْر في العربيّة: الخروف، وجمعه فُرارٌ. (انظر: ابن منظور، لسان العرب، (فرر)).

(14) جاء في (ابن منظور، لسان العرب، (نتع)): "نَتَعَ العَرَقُ يَنْتَعُ نَتْعًا ونُتُوعًا: كَنَبَعَ، إلاّ أن نَتَعَ في العَرَق أحسنُ، ونَتَعَ الدَّمُ من الجُرْحِ والماءُ من العين أو الحجر يَنْتِعُ ويَنْتَعُ: خرج قليلًا قليلًا. ابن الأعرابي: أَنْتَع الرجل إذا عَرِقَ عرَقًا كثيرًا. وقال خالد بن جَنْبَةَ في المُتَلاحِمةِ من الشِّجاج: وهي التي تشقّ الجِلْد فتُزِلّه فيَنْتَعُ اللحمُ ولا يكون للمِسْبارِ فيه طريق، قال: والنَّتْعُ أن لا يكون دونه شيء من الجِلْد يُوارِيه، ولا وَراءه عَظْمٌ يخرج، قد حال دون ذلك العَظْم، فتلك المُتَلاحِمةُ." ويستخلص من هذه المادة أن (النتع) اندفاع شيء من شيء، ليخرج عنه بشكل أو بآخر، وهذا هو المعنى المعبّر عنه في اللهجة الفَيْفِيّة بصيغة"نَتَع"، أو صيغة المفاعلة: "ناتع"، وذلك نحو مناتعة الدابّة في رباطها ومنازعتها إيّاه لتنفكّ منه.

محاولًا الفكاك من رباطه واللحاق بأخيه. وبعد لأيٍ، قال صاحب الفَرِيْر لامْحَمْ عُقَيْسْتَاء:

- "أ مَحَهْ[15]، هكذا يبدو أن لا أنت ستستفيد من فَرِيْرك ولا أنا سأستفيد من فَرِيْري، فهما أخوان تَرَبّيَا معًا، وكما ترى لا يمكن أن يعيشا منفصلَين. فلعلّك تُعفينا من بقيّة هذه الدِّية أو تُنظرنا فيها إلى مَيْسَرة!"

ساعتئذ تذكّر امْحَمْ عُقَيْسْتَاء أخاه الذي قتلوه، فجُنّ جنونه، واستلّ خنجره وانهال على الرجل يوسعه طعنًا، وهو يصيح به:

- "أَوَأَسْكُتُ أنا عن فراق أخي وهذا الفَرِيْر لا يسكت عن فراق أخيه؟!"

- 5 -

هذه الأسطورة على بساطتها مليئة بالرموز الاجتماعيّة والميثولوجيّة، وتثير الكثير من الأسئلة. وممّا تثيره: أسطورة الطيران، وهي أسطورة إنسانيّة قديمة. نجدها لدى (اليونان) مثلًا في قِصّة (إيكاروس)، ضمن أسطورة (مينوس بن أوربا)، الذي فرّ من سجنه، أو من داخل الدهاليز التي زَجّه مينوس مع أبيه المهندس (ديدال) فيها، وقد كان خَلاصُه عن طريق جناحين ثبّتهما أبوه بشمعٍ في كتفيه. وكان أبوه قد قال له: "إن طريق البرّ والبحر مسدود أمامنا، أمّا طريق الفضاء والسماء فطليق". وقبل أن يطيرا، أوصى ديدال ابنه بأن لا يعلو فيقترب من الشمس، لكن غرور الشباب دفعا إيكار للتحليق عاليًا، فأذابت حرارة الشمس الشمع وسقط في البحر[16]. وكذا يُذكّر طيران

(15) الهمزة همزة النداء، ومَحَهْ: محمّد، أي: أ محمّد.

(16) انظر مثلًا: الخوري، أنطوان م.، مينوس بن أوربا (ضمن سلسلة "أساطير وقصص من التاريخ")، (بيروت: مكتبة سمير، د.ت.)، 16.

امْحَمْ عُقَيْسْتَاء بقصص طيران شبيهة، كقصّة (عبّاس بن فرناس) عند العرب الأندلسيين[17].

وفي أسطورة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء إلى هذا دليل على إيمان هؤلاء الناس بالبعث والحساب، والجنّة والنار، وإنْ ران على ذلك غير ذلك. وما تلك إلاّ أسطورة على كل حال، لا يخلو مجتمع من أمثالها.

بل إن هناك تناصًّا غير مباشر يبدو مع قِصّة (هابيل) و(قابيل) والغراب. وكذا مع رحلة (ذي القرنين) الذي طوّف البلاد حتى بلغ مغرب الشمس، فوجدها تغرب في عين حمئة[18].. إلخ. ومع قِصّة (لوط)، الواردة في القرآن الكريم: ﴿فأسْرِ بأهلكَ بقِطْعٍ من الليلِ ولا يلتفت منكم أحدٌ إلاّ امرأتك﴾[19]. وفي القِصّة تفصيل في الكتاب المقدّس[20]، يُذكر فيه أنه قيل للوط: "لا تنظر إلى ورائكَ، ولا تقف في كل الدائرة.

---

(17) هو: عباس بن فرناس التاكرني. ظهر في عصر الحكم الربضي الأندلسي، ووُصف بأنه حكيم الأندلس، الزائد على مجايليه بكثرة الأدوات والفنون. وهو مولى بني أمية، وبيته في برابر تاكرنا. وكان فيلسوفًا حاذقًا، وشاعرًا مفلقًا، مع عِلْم التنجيم. هو أوّل من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وأوّل من فكّ بالأندلس الموسيقى وكتاب العروض للخليل، وكان صاحب اختراع وتوليد، واسع الحِيَل، حتى نُسب إليه السِّحر وعمل الكيمياء. وكثُر عليه الطّعن في دِينه، واحتال في تطيير جثمانه، فكسا نفسه الرّيش على سرق الحرير، ومدّ له جناحين، فتهيّأ له أن استطار في الجوّ من ناحية الرّصافة، واستقلّ في الهواء، وحلّق في الجوّ مسافةً بعيدة، ولكنّه لم يُحسن الاحتيال في وقوعه، فلم يَعمل له ذَنَبًا، فتأذّى في مؤخّره، ولم يدرِ أن الطائر إنّما يقع على زَمَكِّه [ذَنَبه]. وصَنَع في بيته هيئة السماء، وخَيَّل للنّاظر فيها النجوم والغيوم والبروق والرعود. تُوفي في أعقاب أيّام محمّد بن عبد الرحمن، (-274هـ= 887م). انظر: ابن حيّان المؤرّخ الأندلسيّ، المُقتبَس (قِطعة في تاريخ الأمير عبدالرحمن الأوسط)، تح. محمود مكّي (بيروت: دار الكتاب العربي، 1968)، الورقة 256ب؛ ابن سعيد الأندلسيّ، المُغرب في حُلَى المَغرب، تح. شوقي ضيف (مصر: دار المعارف، 1953- 1955)، ج1: ص333؛ المقرّي التلمسانيّ، نَفْحُ الطِّيب مِن غُصن الأندلس الرَّطيب، تح. إحسان عبّاس (بيروت: دار صادر، 1988)، 3: 374.

(18) انظر: سورة الكهف، الآيات 83- 86.

(19) سورة هود، الآية 81.

(20) العهد القديم، سِفر التكوين، الإصحاح التاسع عشر، العبارات 17، 24- 26.

اهرب إلى الجَبَل لئلاّ تَهْلِكَ... فأَمْطَرَ الربُّ على سَدُوْم وعَمُورة كبريتًا ونارًا من عند الربِّ من السماء. وقَلَبَ تلكَ المُدن وكُلّ الدائرة وجميع سكّان المُدنِ ونبات الأرضِ. ونظرتْ امرأتُه من ورائه، فصارت عمودَ مِلْح".

غير أن لأسطورة المَحْمَ عُقَيْسْتَاء علاقة -على وجه الخصوص- أكثر تفصيلًا، بأسطورتين قديمتين، خُلّدتا من خلال ملحمتين شهيرتين، هما: ملحمة كَلكَامش وملحمة الأوديسة.

أ. التعالق مع أسطورة كَلْكَامش:

نُقِشت أسطورة (كَلْكَامش) في أقدم ملحمة شِعريّة معروفة اليوم، ومن المحتمل أنها نُظمت في عهد (سرجون الأول الأكدي، 2325- 2269ق.م)[21]. وملخص الملحمة، في ألواحها الاثني عشر: أن كَلْكَامش- ابن الربّة (نينسون)، وابن الملك (لوكال باندا)- كان ملكًا على (أوروك)[22]، ثلثاه إله وثلثه إنسان. وكان مستبدًّا، لم

(21) انظر: سامي سعيد الأحمد، ملحمة كَلكَامش، (بيروت: دار الجيل؛ بغداد: دار التربية، 1984)، 14.

(22) تبدو كلمة (أوروك) هي أصل اسم (عراق). على أن اللغويين العرب قد خاضوا في تفسير اسم (العراق) بأقوال متعدّدة، ومن ذلك ما يورده (ابن منظور، لسان العرب، (عرق))، في قوله: "قال أبو زيد: اسْتَعْرقت الإبل إذا رعت قُرْب البحر. وكل ما اتّصل بالبحر من مَرْعىً فهو عِراقٌ... والعِراقُ: شاطئ الماء، وخصّ بعضهم به شاطئ البحر... والعِراقُ: من بلاد فارس، مذكّر، سُمّي بذلك لأنه على شاطئ دِجْلَةَ، وقيل:سُمِّيَ عِراقًا لقربه من البحر، وأهل الحجاز يُسمّون ما كان قريبًا من البحر عِراقًا، وقيل: سُمِّيَ عِراقًا لأنه اسْتَكَفّ أَرض العرب، وقيل: سُمِّيَ به لتَواشُج عُروق الشجر والنخل به كأنه أراد عِرْقًا، ثم جمع على عِراقٍ. وقيل: سَمَّى به العجمُ، سَمَّتْه إِيرانْ شَهْر، معناه: كثيرة النخل والشجر، فعرّبَ فقيل عِراق؛ قال الأَزهري: قال أبو الهيثم زعم الأَصمعي أَن تسميتهم العِراقَ اسم عجمي معرب إِنما هو إِيرانْ شَهْر، فأَعربته العرب فقالت عِراق، وإِيران شَهْر موضع الملوك... قال ابن بري: وقد جاء العِراقُ اسمًا لِفناء الدار... [و]العِراقَ بين الرِّيف والبَرّ، وقيل: العِراقُ شاطئ النهر أَو البحر على طوله، وقيل لبلد العِراقِ عِراقٌ لأَنه على شاطئ دِجْلَة والفُراتِ عِداةَ حتى يتصل بالبحر، وقيل: العِراقُ معرب وأَصله إِيرَاق فعربته العرب فقالوا عِرَاق." وربما كانت لكلمة (أوروك) في لغات العراق القديمة معنى (عراق) في العربيّة، ولا غرابة فالأصل الساميّ واحد، بدليل أن كثيرًا من مفردات ملحمة كَلكَامش ما زالت مستعملة في العربيّة إلى اليوم، مع بعض الاختلافات الصوتيّة.

يدع عذراء لأمّها، ولا زوجة لبعلها، ولا ولدًا لأبيه. فشكا الناس أمره إلى الآلهة، فخلقتْ له نظيرًا، هو (أنكيدو) المتوحّش. وقد استدرج كَلْكَامشُ أنكيدو إلى مملكته مستعينًا بإغراء العاهرة (شمخة). ليتحوّل الخصم (أنكيدو) إلى صديق كَلْكَامش الحميم، فيتضافران لقتل (خمبابا)، رمز الشرّ. ولمّا نجحا في ذلك، أخذتْ (عشتار)- ربّة الحبّ والخصب- تتقرّب من كَلْكَامش، خاطبة ودّه ليتزوّج بها، إلاّ أنه رَفَضها، ساخرًا منها، متّهمًا إيّاها بالغدر والخيانة. فسلّطتْ عليه ثور السماء، فقتله بمساعدة أنكيدو. وفيما كانت عشتار تطلق لعناتها على كَلْكَامش لما اقترفَ، ضربها أنكيدو على وجهها بفخذ الثور الأيمن. فما كان من الآلهة إلاّ أن حتّمت الموت على أنكيدو، انتقامًا لكرامة عشتار. فحزن كَلْكَامش على أنكيدو حزنًا شديدًا، وقرّر الرحيل في طلب المعرفة بسرّ الخلود. حتى وصل إلى (أتونابيشتوم)، الذي يحمل في الملحمة ملامح شخصيّة نوح، عليه السلام. فحكى له أتونابيشتوم قصّة الطُّوْفان، ثم دلّه على نبتةٍ تجدّد الحياة. وقد عثر كَلْكَامش على النبتة، لكنها التهمتها حيّةٌ، حينما ذهب ليستحمّ. فرجع إلى أوروك بخفّي حُنين. ثم تحكي الملحمة أخيرًا أن أنكيدو كان قد خالف وصايا كَلْكَامش بمراعاة تقاليد العالم السفلي (عالم الأموات)، ولذلك أمسك به العالم السفلي عن الصعود إلى كَلْكَامش، ما دفع بهذا الأخير إلى السعي لدى الآلهة كي يستطيع الالتقاء بأخيه، فاستجابتْ له، وفتحتْ له ثقبًا خرجت منه إليه روح أنكيدو، فالتقى الصديقان وتشاكيا وتباكيا.

فإذا رجعنا إلى هذه الملحمة أمكن أن نلحظ أوجه تشابه بين أسطورة كَلْكَامش وأسطورة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء، من خلال ما يأتي:

1- كلا البطلين، كَلْكَامش واخَمْ عُقَيْسْتَاء، يمثّل مخلوقًا خارقًا للطبيعة البشريّة، فكَلْكَامش "ثلثاه إله وثلثه بشر"[23]، واخَمْ عُقَيْسْتَاء كان رجلًا مباركًا في اعتقاد قومه، أو "صوفيًّا"، بوجهه يستمطرون السماء. وما حدث في قصّته يدلّ على تصوّر شخصيته الخوارقيّة.

2- كما هو الحال في أسطورة اخَمْ عُقَيْسْتَاء فإن أسطورة كَلْكَامش تَنسب إلى حوّاء الهلاك والشرّ. لقد كانت وراء مقتل أخي اخَمْ عُقَيْسْتَاء وما تبع ذلك من أحداث جسام. وهذا ما عبّرتْ عنه قصّة أنكيدو مع العاهرة شمخة التي أغوته، فجعل يكيل عليها اللعنات لما جرّته عليه من المصائب التي انتهت به إلى الهلاك[24]. وكذا كان موقف كَلْكَامش من عشتار، وما اتهمها به من خيانة وغدر[25]. وإذا كانت حوّاء (العاهرة شمخة) قد أهلكتْ أنكيدو، فإن الحيّة قد أهلكتْ كَلْكَامش بأكلها دونه نبتة الخلود. والعلاقة بين حوّاء والحيّة من جهة، والخطيئة وشجرة الخُلد من جهة أخرى، تمثّل نموذجًا نمطيًّا في الأساطير القديمة. وفي هذا يقول (عديّ بن زيد العبادي، - نحو 35ق.هـ= 587م)[26]:

لم ينهه ربُّهُ عن غيرِ واحدةٍ ... فكانتْ من شَجَرٍ طَيّبٍ: أنْ شَمَّ أو أَكَلا

الحَيَّةُ الرَّقْشاءُ إذْ خُلِقَتْ ... فلاطَها اللهُ كما تَرَى ناقَةً في الخَلْقِ أو جَمَلا

إذ أغوتْ خليفَتَهُ ... طُوْلَ الليالي ولم يَجعلْ لها أَجَلا

(23) الأحد، ملحمة كَلكَامش، اللوح الأول، العمود الثاني، السطر 1، 50.

(24) م.ن.، اللوح السابع، العمود الثالث، 331- 332.

(25) م.ن.، اللوح السادس، العمود السادس، 308- 311.

(26) عديّ بن زيد، ديوانه، تح. محمّد جبّار المعيبد (بغداد: شركة دار الجمهوريّة، 1965)، 159- 160.

ويذكر (الجاحظ)[27]- ناسبًا الأسطورة إلى أهل الكتاب- أن الحيّة كانت في شكل جَمَل، وأن الله لاطها بالأرض لاحتمالها دخول إبليس في جوفها والوسوسة إلى آدم من فيها.

3- معاناة كَلْكَامش واهْمَمْ عُقَيْسْتَاء نشأت عن فَقْد الأخ بسبب الموت. وقد كان أنكيدو لكَلْكَامش بمثابة أخيه، إذ كانت الربّة (أرورو) التي خَلَقَتْ كَلْكَامش قد خَلَقَتْ أنكيدو، ليكون له منافسًا ثم زميلًا وعضيدًا. بل إنه ليتكرّر تلقيب أنكيدو بـ"أخي" كَلْكَامش في الملحمة كثيرًا[28].

4- رحل كَلْكَامش من أجل فقدان أخيه أنكيدو، وخاض المغامرات، كما رحل اهْمَمْ عُقَيْسْتَاء هائمًا على وجهه من أجل فقدان أخيه، وخاض المغامرات للعثور عليه.

5- يُحكَى عن كَلْكَامش في كتابات الروماني (كلوديوس إيليانوس) أن (الكلدانيين) كانوا قد أنذروا (سيوخوروس)، إبّان حكمه (بابل)، بأن ابنًا سوف يولد لابنته يغتصب الملك منه. فما كان منه- للحيلولة دون ذلك- إلاّ أن سَعَى إلى سَجْنِ ابنته وجعلها تحت رقابة مشدّدة، حتى لا تعرف رجلًا. غير أنها حَمَلَت من رجلٍ غير معروف. فلمّا وضعتْ حَملها، رمى الحرس المولود من القلعة التي كانت بنتُ الملك سجينة فيها، فتخطّفه نسرٌ وألقاه في بستان، فربّاه البستانيّ، وسمّاه

---

(27) انظر: الجاحظ، الحيوان، تح. عبدالسلام محمّد هارون (مصر: مصطفى البابي الحلبي وأولاده، د.ت.)، 1: 297، 4: 197. وقارن: الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، (بيروت: دار مكتبة الحياة، 1961)، 4: 686؛ عزّ الدين ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تح. نخبة من العلماء (بيروت: دار الكتاب العربي، 1983)، 1: 20- 21؛ محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، عناية: محمّد بهجة الأثري (مصر: دار الكتاب العربي، 1342هـ)، 2: 359.

(28) انظر: الأحد، ملحمة كَلْكَامش، اللوح الثالث، العمود السادس، السطر 60، ص196: "ليذهب أمامك أخوك"؛ اللوح السادس، العمود السادس، السطر 156، ص315: "جلس الأخوان كلاهما"؛ اللوح السابع، العمود الأول، السطر 19، 22، ص318: "أخي، أخي العزيز.../ هل سوف لا أرى أخي العزيز بعيني ثانية؟"؛ اللوح الثاني عشر، السطر 81، ص554: "حتى تتكلّم [روح أنكيدو] إلى أخيه".

كَلْكَاموس. فتحقّقت النبوءة بحكم كَلْكَامش بابل[29]. ونجاء كَلْكَاموس من الموت بتلك المعجزة شبيهٌ بنجاء اخْمَ عُقَيْسْتَاء من الموت؛ إذ ذاب الجناحان اللذان اصطنعهما للطيران بحثًا عن أخيه، فسقط أرضًا، لولا أن قيّظ الله له ملائكة تلقّفته ورفعته إلى السماء.

6- تَرِد في أسطورة كَلْكَامش قِصّة الطُّوْفان الذي نجا منه أتونابيشتوم ومن حَمَل معه في الفُلك، ومن ثَمّ كُتِب لأتونابيشتوم الخلود. وهي قِصّة تحيل إلى قصّة (نوح، عليه السلام)، المعروفة في الكُتب السماويّة. ولقد قَصَد كَلْكَامش أتونابيشتوم بعد فقده أنكيدو، باحثًا لديه عن سرّ الخلود. وهذا الجزء من الأسطورة يذكّرنا بوقوف اخْمَ عُقَيْسْتَاء على موزّعي السحاب والأمطار من الملائكة، وطلبه أن يستوصوا بقِسمٍ من البلاد بأكثر ممّا قدّروه، فكان أن تسبّب في خراب ذلك المكان من فَيْفاء، نتيجة طوفان من الأمطار والسيول. فانقلب ما أراد من الخير إلى خراب. هذا فضلًا عن مشاهد الأمطار الأخرى في ملحمة كَلْكَامش، وذلك كرؤية أنكيدو التي قصّها على كَلْكَامش وهما في سبيل قتل الوحش خمبابا، إذ قال في (اللوح الخامس)[30]:

13- يا صديقي لقد رأيتُ حُلمًا ثالثًا

14- وكان جميع الحُلم الذي رأيته مخيفًا.

15- أرعدت السماء، استجابت الأرضُ

16- وتلاشى النهارُ وحلّت الظلمة.

---

(29) انظر: م.ن.، 25- 26، نقلًا عن:

Hugo Gressmann, Mose und seine Zeit, (Gottingen, 1911), pp. 11- 12.

(30) م.ن.، 268- 269.

17- أبرقَ[31] البرقُ واشتعلت النار

18- امتلأت السحب وأمطرتْ موتًا...

7- كلا البطلين يلتقي أخاه بعد الموت في العالم الآخر. إلاّ أن كَلْكَامش يلتقي أنكيدو الذي كان في العالم السفلي، فيما التقَى امْحَمْ عُقَيْسْتَاء بأخيه في العالم العُلوي. ويُلحظ هنا اختلاف الرؤية بين الأسطورتين، فالعالم الآخر حسب أسطورة كَلْكَامش هو سُفليّ، فيما هو عُلويّ حسب أسطورة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء.

8- عودة كَلْكَامش إلى بلاده، كسيرًا حزينًا، شبيهة بعودة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء إلى بلاده، وإن كان الأخير قد وَجَد عزاءه في معرفة ما حلّ بأخيه، وما أوصاه به من تسامح، وكذا في عودته إلى بيته وزوجته؛ فكان أقلّ طموحًا من كَلْكَامش في المستحيل وأكثر أملًا منه في الحياة.

9- لقد ضحّى امْحَمْ عُقَيْسْتَاء للغرابين اللذين دلاّه على مكان دفن أخيه بثَوْره، كِفاء وفائهما بما أوكله إليهما أخوه. فهل اختيار "الثور" هنا هو لإجزال المكافأة للغرابين فقط؛ من حيث هو أكبر ما يمكن أن يُضحَّى به في تلك البيئة، وأغلى ما يمكن أن يُضحَّى به في بيئة زراعيّة، أم أن لذلك علاقة برمزيّة الثور الميثولوجيّة؟ لقد جاء عنصر الثور في أسطورة كَلْكَامش من خلال الثور السماوي الذي سلّطته عشتار على كَلْكَامش حينما رفض الزواج منها، فقتله هو وأنكيدو وقدّموه أمام الإله شماش (الشمس)، ولمّا لعنتهما عشتار رمى أنكيدو فخذ الثور الأيمن في وجهها[32]. وللثور دلالته الدينية في ميثولوجيا شعوبٍ مختلفة، ومنها العربيّة

---

(31) في المصدر: "ومضى"، والصواب "وَمَضَ". ولكن لماذا تحريف الكلمة " أَبْرَقَ" إلى "وَمَضَ"، وهي في الأكديّة والعربيّة بمعنى واحد؟ ذلك أن الأصل الأكدي هو: "إبريق بيرقو"، أي: "أَبْرَقَ البَرْقُ". (انظر: م.ن.، ص265، السطر 17).

(32) انظر: م.ن.، اللوح السادس، العمود السادس، السطر 152- 167، ص315.

واليونانيّة[33]. فالثور رمز الفحولة والقَمَر، ولعلّه لهذا قدّمه كَلْكَامش وأنكيدو أمام شماش (الشمس)، رمز الأنوثة. وكانت عبادة القَمَر (ورمزه الثور) ديانةً جنوبيّةً، انتقلت مع بدايات الهجرات الساميّة إلى شمال الجزيرة، إبّان العصر (الباليوليثي Palaeolithic). وكان (الثور/ القمر) يحمل صفات تعظيم في نقوش العرب الجنوبيين: كأبم، وكهلن، وبعل. وقد وُجدت آثار عبادة (الثور/ القمر) في أجزاء اليمن المختلفة، فكان: سنّ، وعم، وودّ، والمقه، وشهر[34]. وليست التضحية بالطوطم- أو رمز الإله الحيواني- وأكل لحمه، بغريب على عقائد الأمم الوثنيّة القديمة. مثلما أن الصراع الأسطوري بين الشمس والقمر ورموزهما في الميثولوجيا القديمة يجعل التضحية برمز الخصم لخصمه- أي رمز القمر (الثور) للشمس- ممارسة مألوفة، تتّخذ صفة العيد لدى تلك الأُمم. وعليه، فلا يبعد أن يكون ذبح اخَمْ عُقَيْسْتَاء الثور ضربًا من القُربى للشمس، شُكرًا لعثوره على أخيه، مثلما قدّم كَلْكَامش وأنكيدو الثور السماويّ (القمر) زلفى بين يدي (شماش/ الشمس)، وأحيا كَلْكَامش في قصره بتلك المناسبة حفلة طرب[35]. إلاّ أن بين الأسطورتين تضادًّا في ترتيب الأحداث القصصيّة، فالتضحية بالثور في أسطورة كَلْكَامش كانت السبب في موت أخي البطل، (أنكيدو)، انتقامًا من الآلهة لقتل الثور السماوي[36]، فيما التضحية بالثور في أسطورة اخَمْ عُقَيْسْتَاء كانت نتيجة لعثور البطل على أخيه، شكرًا على تحقّق

(33) انظر: م.ن.، 20.

(34) انظر: عبدالله الفيفي، مفاتيح القصيدة الجاهلية نحو رؤية نقدية جديدة، (عبر المكتشفات الحديثة في الآثار والميثولوجيا)، (جُدّة: النادي الأدبي الثقافي، 2001)، 82- 83.

(35) انظر: الأحمد، ملحمة كَلكَامش، اللوح السادس6، العمود6، السطر 189، ص316.

(36) انظر: م.ن.، اللوح السابع، العمود الأول، النصّ الأكدي، السطر 6، ص317.

ذلك. أي أن التضحية في الأسطورة الأولى كانت جريمةً اقتضت جزاءً (هو موت أخي كَلْكَامش)، وفي الأسطورة الثانية كانت التضحية جزاءً عن كشف جريمة (هي مقتل أخي اخَمْ عُقَيْسْتَاء).

10- من اللافت أن طائر الغُراب -الذي يُتشاءم به عادة- قد جاء بعكس ذلك في أسطورة اخَمْ عُقَيْسْتَاء، رامزًا للوفاء، وللهداية والمعرفة. ولئن كان هذا يذكّر برمزيّة الغُراب في قصّة قابيل وهابيل، كما سبقتْ الإشارة، فإنه يتوافق كذلك مع رمزيته في ملحمة كَلْكَامش، حيث يحدّث أتونابيشتوم كَلْكَامش عمّا فعلَ بعد الطوفان، قائلًا:

145- وعند حلول اليوم السابع

146- أرسلتُ الحمامة وأطلقت

147- ذهبت الحمامةُ ورجعتْ إليّ

148- لم تجد مكان وقوف لها تشاهده فرجعتْ

149- أرسلتُ السنونو وأطلقت

150- ذهب السنونو ورجع إليّ

151- لم يجد مكان وقوف له يراه فرجع

152- أرسلتُ الغراب وأطلقت

153- ذهب الغرابُ ورأى جفاف الماء

154- أكلَ ودارَ وتجوّل ولم يرجع[37].

(37) انظر: م.ن.، اللوح الحادي عشر، 525.

ولعلها جاءت فكرة "غُراب البَيْن" من هذا، إلاّ أن عدم رجوع الغُراب في قصّة الطُّوْفان كان فألًا وبشارة. وعليه، فقد كانت وظيفة الغُراب وظيفة خيرٍ في أسطورة كَلْكَامش كوظيفته في أسطورة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء.

11- وأخيرًا، يمكن أن يلحظ أن بيئة أسطورة كَلْكَامش، ولاسيما في مغامراته، هي بيئة جبليّة غالبًا، حتى ليرد في (اللوح الثاني- العمود الأوّل)، حول رؤيا كَلْكَامش المناميّة بالتقائه أنكيدو:

16- قالت أُمّ كَلْكَامش

17- حقًّا يا كَلْكَامش إن الذي يُماثلك

18- قد ولد في البريّة

19- وربّاه الجبل...[38]

وكذلك هي بيئة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء، بيئة جبليّة وتربيته تربية الجبل.

ب. التعالق مع أسطورة أوديسيوس:

كثقافات كثيرٍ من الشعوب، فإن الثقافة المنتجة لأسطورة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء تَنسب إلى المرأة مختلف الشرور التي تنجم عن حماقات الرجال، حسبما تقدّم. وتذكّرنا المرأة في أسطورة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء بما قيل في سبب حرب (طروادة)، على سبيل المثال، حيث كانت هناك المرأة (هيلانة) التي اختطفها (باريس) إلى طروادة.

بل إن جوانب من أسطورة (أوديسيوس Odysseus) نفسه، بطل تلك الحرب، لتشبه بعض ما ورد في أسطورة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء، ولاسيما في نهايتها. ومشهورة أسطورة أوديسيوس، التي خلّدها (هوميروس) في ملحمتيه الشعريّتين "الإلياذة" و"الأوديسة"، اللتين أنشأهما في القرن الثامن قبل الميلاد. وتتحدّث أُولاهما عن

(38) م.ن.، اللوح الثاني، العمود الأول، 110.

حرب (اليونان) على (الطرواديّين) بسبب الجميلة هيلانة، وكيف أن أوديسيوس -وهو مَلِك (إيثاكا)، ويطلق عليه أيضًا: (أوليس Ulysses)- قد تَرَك بلده كي يكون من قادة حرب طروادة، وكان صاحب حيلة حصان طروادة التي بسببها انهزم الطرواديّون. أمّا «الأوديسة» فتتحدّث عن ترحال البطل أوديسيوس، عائدًا من حرب طروادة إلى موطنه إيثاكا. وهي ما تعنينا من قصّة أوديسيوس؛ لما يبدو فيها من شَبَهٍ مع أسطورة المَحْمِ عُقَيْسْتَاء.

وخلاصة «الأوديسة»: أنه بعد انتصار (اليونانيّين) في حرب طروادة بطِرَوا أمرهم، وأغضبوا الآلهة التي ساعدتهم في نصرهم، فانقلبتْ عليهم لمعاقبتهم. ولذا أثار إله البحر (بوصيدون)، بطلبٍ من الإلهة (أثينا)، عواصف البحار في طريق عودتهم، فهَلَك من هَلَك وتاه من تاه، ومنهم أوديسيوس الذي تاه في البحر عشر سنين، لاقى فيها أهوالًا كثيرة. ولمّا سكت عن أثينا الغضبُ، خفّت إلى مساعدة أوديسيوس للعودة إلى بلاده، وأعلمتْه أن النُّبَلاء في مملكته يأتمرون بزوجته. وكان غيابه الطويل قد جعل الناس يعتقدون موته، إلاّ زوجته (بنلوب) وابنه (تلماك). وكان قصر أوديسيوس قد امتلأ بالنُّبَلاء الطامعين في الزواج بزوجته الجميلة الوفية، عارضين عليها ما تريد. وظلّوا يعيثون في القصر، مقيمين الولائم، مبدّدين المُؤَن، في انتظار أن تختار بنلوب أحدهم زوجًا. إلاّ أنها قاومتهم بالحيل المختلفة، ومنها حيلة نسج ثوبٍ جديد، كانت تغزله في النهار لتنقض غَزْلها في الليل أنكاثًا. طالبةً منهم الانتظار ريثما تنتهي من عمل الثوب، فيما كانت تترقّب عودة زوجها.

ولمّا طال غياب أوديسيوس سافر تلماك يتحسّس من أبيه، ويسأل عنه في الممالك المجاورة. ثم عاد إلى إيثاكا بعد يأس؛ فتعرّف عليه أبوه هناك، فقد كان عاد إليها.

وفي اليوم التالي آب تلماك إلى القصر، يتبعه أبوه في هيئة متسوّل عجوز، وذلك بعد عشرين سنة من غيابه. وعندما دخل أوديسيوس القصر تعرّض إلى السّخرية من

الحاضرين من الأمراء والنُّبَلاء الطامعين في الزواج من بنلوب، حتى لقد تجرّأ أحدهم فضَرَبَه بكرسيٍّ صغير. فرَثَتْ بنلوب لحاله، وهي له مُنْكِرَة، ولاطفتْه وحادثتْه، فأخبرها أنه كان في الحرب، وأنه التقى زوجها، فبَكَتْ، لكن أوديسيوس كَتَمَ عنها أمره. ثم إنها طلبتْ إلى مربيّة عجوزٍ لديها أن تغسل رجلي المتسوّل العجوز، فإذا المربيّة تتعرّف على شخصيّة أوديسيوس لمعرفتها ندبًا كان في رجله، ما أن شاهدتْه حتى أسقطتْ من يدها رِجْل أوديسيوس في قصعة الماء، ولكن أوديسيوس طلب منها الكتمان.

وكان التحدّي في اليوم التالي لحسم مسألة الزواج. حيث أعدّت بنلوب وليمة لجميع أولئك النُّبَلاء، ثم أحضرت قوس زوجها العظيمة، واشترطتْ في مَن ستقبل به زوجًا أن يستطيع شدّ وَتَر القوس ويُطلق سهمًا في اثنتي عشرة حلقة متتابعة. جرّب الجميع حظوظهم، لكنهم عجزوا عن ذلك. إذا بالمتسوّل العجوز أوديسيوس يُفاجئهم صوته:

- "هل لي أنْ أرى ما إذا كانت لي قوّة بشدّها؟"

التفتوا إلى صوته، وتصايحوا مستنكرين. لكن تلماك أسكتهم. وَقَف أوديسيوس متناولًا القوس وشدّ وَتَرها بسهولةٍ، وأطلق السّهم في الحلقات الاثنتي عشرة. ثم أتبع ذلك بالفَتك بأولئك النُّبَلاء المُحْدِقين بزوجته واحدًا واحدًا. فعرفتْ بنلوب عندئذٍ أن ذلك ما هو إلاّ زوجها أوديسيوس، وها قد عاد. وشَهِد القصر عُرس عودة البطل أوديسيوس إلى بيته وزوجته وابنه[39].

---

(39) انظر في هذا: سليمان البستاني، إلياذة هوميروس- (معرّبة نظمًا، وعليها شرحٌ تاريخيٌّ أدبيٌّ، ومصدّرةٌ بمقدّمة عن هوميروس وشِعْره، وآداب اليونان والعرب)، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت.)؛ هوميروس، الأوديسة، ترجمة: حنّا عبود (حمص: دار الحقائق، 2007)؛ أنطوان م. الخوري، مغامرات أوليس، (ضمن سلسلة "أساطير وقصص من التاريخ")، (بيروت: مكتبة سمير، د.ت.).

ويلحظ التشابه بين أسطورة أوديسيوس وأسطورة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء من خلال الملامح الآتية:

1) عودة الملك أوديسيوس إلى زوجته وابنه في صورة متسوّل، ثم تعرّفه على ابنه تلماك أوّلًا. مثلما عاد العظيم في قومه امْحَمْ عُقَيْسْتَاء إلى زوجته وابنته في هيئة "طُرْشِي"، أي متسوّل، وتعرّف على ابنته أوّلًا، على البئر.

2) لقد عاد أوديسيوس إلى بيت زوجته السيدة بنلوب، والأمراء والنُبَلاء يطلبون الزواج بها في قصره، كما عاد امْحَمْ عُقَيْسْتَاء إلى بيته في ليلة عُرس زوجته، والقوم مُحْدِقون بها لزفّها إلى أحدهم.

3) إذا كانت وسيلة تعرّف المربيّة العجوز على شخصيّة أوديسيوس من خلال معرفتها بندب كان في رجله- إذ ما أن شاهدت تلك العلامة حتى أسقطتْ من يدها رِجْل أوديسيوس في قصعة الماء، ولكن أوديسيوس طلب منها الكتمان- فإن زوجة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء عرفته من خلال خاتم يده الذي قدّمه إليها مع ابنته هديّة في ليلة عُرسها، حيث ما أن فتحتْ فم الإداوة، حتى اندلق الخاتم مع الماء، لكنها كتمتْ الأمر.

على أن القارئ قد يلمح هاهنا تناصًّا أيضًا بين خاتم امْحَمْ عُقَيْسْتَاء وخاتم (المرقّش الأكبر)، حيث يرد- في حكاية عشقه (أسماء)، وتزويجها بسِواه، وهيامه بها- أنه "كان في الكهف، ولم يزل فيه حتى إذا هو بغنم تنزو على الغار الذي هو فيه، وأقبل راعيها إليها. فلما بَصُر به، قال له: من أنت وما شأنك؟ فقال له مرقّش: أنا رجل من مُراد، وقال للراعي: من أنت؟ قال: راعي فلان، وإذا هو راعي زوج أسماء. فقال له مرقّش: أتستطيع أن تكلّم أسماء امرأةَ صاحبك؟ قال: لا، ولا أدنو منها، ولكن تأتيني جاريتُها كلّ ليلة فأحلُب لها عنزًا فتأتيها بلبنها. فقال له: خذ خاتمي هذا، فإذا حلبتَ فألقه في اللبن، فإنها ستعرفه، وإنك مُصيبٌ به خيرًا لم يُصبه راعٍ قطُّ إنْ أنت فعلتَ

ذلك. فأخذ الراعي الخاتم. ولما راحت الجارية بالقَدَح وحَلَب لها العنزَ طرح الخاتم فيه؛ فانطلقت الجارية به وتركتْه بين يديها. فلمّا سكنتْ الرّغوة أخذتْه فشربتْه، وكذلك كانت تصنع، فقَرَع الخاتم ثَنيّتها، فأخذتْه واستضاءت بالنار فعرفتْه؛ فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: ما لي به علم؛ فأرسلتْها إلى مولاها وهو في شَرَفٍ بنَجْران؛ فأقبل فَزِعًا، فقال لها: لِمَ دعوتِني؟ قالت له: ادعُ عبدك راعيَ غنمك فدعاه؛ فقالت: سَلْه أين وجد هذا الخاتم؟ قال: وجدتُه مع رجلٍ في كهف خُبّان- قال: ويقال كهف جبار- فقال: اطرحه في اللبن الذي تشربه أسماء فإنك مصيبٌ به خيرًا، وما أخبرني من هو، ولقد تركتُه بآخر رَمَق. فقال لها زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقّش، فاعجل السّاعة في طلبه. فركب فَرَسه وحملها على فَرَسٍ آخر وسارا حتى طرقاه من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلهما، فمات عند أسماء."[40] وقريبٌ من هذا أيضًا يرد في قِصّة (عروة بن حزام) ومحبوبته (عفراء)[41]. ولقد دخل مكوّن (الخاتم) في التراث القصصيّ الإنسانيّ بضروب متعدّدة من التوظيف، بدءًا من خاتم **(سليمان)** ومُلْكه، إلى خواتم العشّاق، إلى غير ذلك.

بيد أن ما يعني الدارس هاهنا لا عنصر الخاتم في ذاته- الذي قد يرد في حكايات شتّى على أنحاء متشابهة- بل موقع الخاتم من سياق حكاية **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء** إجمالًا، بوصفه (علامة) استدلّت بها زوجة **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء** على عودته، كما استدلت مربية **بنلوب** على عودة **أوديسيوس** بعلامةٍ جسديّة. ثم إن تداخل عناصر من القِصص الشعبيّة بعضها في بعض أمرٌ وارد شائع، ربما لأصول مشتركة تمتح منها تلك القِصص، أو لمحض تشابهٍ بينها ناجم عن وحدة الذهن الإنساني والتوارد الطبيعي في

---

(40) الأصفهاني، الأغاني، ج6: ص124- 125.

(41) انظر: م.ن.، ج23: ص304.

طرائق التصوّر والتعبير، أو قد ينشأ ذلك عن اقتباس رواة القِصص عناصر حكائيّة وظيفيّة من هنا وهناك.

4) تعرّض **أوديسيوس** في هيئته الرثّة إلى السّخرية من الحاضرين من الأمراء والنُّبَلاء الطامعين في الزواج من **بنلوب**، حتى لقد تجرّأ أحدهم وضربه بكرسيٍّ صغير. وذلك ما حدث **لامْحَمْ عُقَيْسْتَاء** مع ضيوف بيته، الحاضرين زواج أحدهم من امرأته.

5) إلاّ أن التحدّي الذي ثَبَتَ به تفوّق **أوديسيوس** كان أن أحدًا سواه لم يستطع أن يشدّ وَتَر قوسه العظيمة ويطلق سهمًا في اثنتي عشرة حلقة متتابعة، كما كان شرط **بنلوب** لمن ستَقْبَل الزواج به من خاطبيها. وحين عجزوا عن ذلك شدّ **أوديسيوس**، الذي كانوا يستهينون به، وَتَر قوسه بسهولةٍ، وأطلق سهمًا في الاثنتي عشرة حلقة المتتابعة، ثم فتَك بالأمراء والنُّبَلاء جميعًا. ثم أوى إلى زوجته سالمًا غانمًا. مثلما أن **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء** لمّا قال للمحتفلين بزواج زوجته من أحدهم: "أعطوني "امقاتّة" وأنا أُنزل لكم البُرَم!"، التفتوا إلى صوته، متضاحكين من بؤس هيئته وظرفه.. لكنهم وافقوا أن يعطوه فرصةً ليتفكّهوا بطرافة الموقف. فإذا به يحمل البُرَم واحدة تلو الأخرى فينزلها بسهولة. فكان ذلك هو التحدّي الذي ثَبَتَ به تفوّق **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء**، إذ لم يستطع أحدٌ سواه إنزال البُرَم. هذا إضافة إلى الإعجاز الآخر، وهو أنهم لمّا فَتَحوا القدور وجدوا اللّحم كلّه قد التصق بقَعْرها، أي قد صار كلّه "قاتّة"، فبات مِن حقّ **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء** وحده، بحسب شرطه عليهم في مقابل مساعدته إيّاهم بإنزال البُرَم. عندها تأكّد لهم أن الرجل ما هو إلاّ **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء**.. وها قد عاد. فانصرفوا مكسوفي البال، وأوى الرجل إلى زوجته سالمًا غانمًا.

6) بل إن التّجانس اللّفظي بين اسمي **«عُقَيْسْتَاء»** و**«أوديسة»**، أو **«أوديسيوس»**، ليلفت النظر. مثلما يمكن القول: إن تّجانسًا لفظيًّا بين اسمي **«عُقَيْسْتَاء»** و**«كَلكَامش»**،

أو «كَلكاموس»، ليلفت النظر كذلك، وإن بدرجة أقلّ. واسم «عُقَيْسْتَاء» ليس اسمًا مستعملًا في جبال فَيْفاء مطلقًا في غير هذه الأسطورة.

ومع أن أسطورة **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء** قد تكون أطول أسطورة متداولة في جبال فَيْفاء، ولاسيما في الجبال السفلى منها، فلا بدّ أن هناك أطرافًا منها وتفاصيل منسيّة؛ لأنها إنما تُنوقلت شفهيًّا، وما تلك إلاّ بقاياها في ذاكرة بعضِ كبارِ السنّ.

* * *

وبعد هذه الوقفات المقارنة، تتبادر الأسئلة:

هل هي مجرّد تواردات عَرَضيّة تلك التي بدت بين أسطورة **امْحَمْ عُقَيْسْتَاء** وأسطورتي **كَلْكَامش** و**أوديسيوس**، أم تدلّ على علاقات تاريخيّة ما بين هذه الأساطير؟ إذ الأمر هنا ليس متعلّقًا بما يمكن أن يُعزى إلى نماذج إنسانيّة عُليا مخبوءة في السلوك البشري (Archetypes)[42] فحسب، ولكنه متعلّق بتشابهات تفصيليّة لافتة.

لقد رصد الدارسون تأثّر اليونان والرومان بملحمة كَلْكَامش، ولاحظوا التشابه بينها وقصة أوديسيوس، كما صُوّرت في «الأوديسة»[43]. ولكن ماذا عن أسطورة امْحَمْ عُقَيْسْتَاء، التي تتداخل مع تلكما الأسطورتين معًا؟

---

(42) تعود فكرة النماذج العُليا إلى نظريّة (كارل غوستاف يونج) النفسيّة، الذاهبة إلى أن الإنسان يختزن في أنسجة الدماغ صُوَرًا ابتدائيّة لا شعوريّة، ورواسب نفسيّة لتجارب أوّليّة، خاضها أسلافه في عصورٍ بدائيّة، تظهر نماذجها عمّا يسمّيه (اللاوعي الجمعيّ) في جذور كلّ فنّ ذي ميزةٍ عاطفيّة خاصّة. (انظر مثلًا: كارل غوستاف يونج، علم النفس التحليلي، تر. نهاد خياطة (دمشق: دار الحوار، 1985)، ص163- 293، 300؛ استانلي هايمن، النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، تر. إحسان عباس ومحمّد يوسف نجم (بيروت: دار الثقافة، 1978)، ج1: ص245- 246). وقامت على أساس هذه النظريّة دراسات أدبيّة مقارنة كثيرة، منها:

Bodkin, Maud, Archetypal Patterns in Poetry, (London: Oxford University Press, 1968).

(43) انظر: الأحمد، ملحمة كَلكَامش، 24.

وأيّ الأساطير الثلاث هي الأصل وأيّها الفرع؟

أم لا أصل ولا فرع؟

أم أن لها جميعًا أصلًا مشتركًا؟

أسئلة رهينةٌ إجاباتها بمزيدٍ من البحث، غير أن ظاهرة التشابه بين تراثات الشعوب وأساطيرهم المهاجرة ليست- على كل حال- بالأمر النادر أو الغريب، ما دامت التجربة البشريّة قد مرّت بالطريق نفسها والأسئلة عينها.

غير أن التعالق بين هذه الأساطير يلفتنا إلى أن كثيرًا من تراث الأمم الأخرى، المدوّن، لا مزيّة له بالضرورة على تراثنا الشعبيّ الشفهيّ- غير المحفوظ بالتدوين- ولا تميّز له بالضرورة من حيث الطاقة المتخيّلة؛ وأن الذات الإنسانيّة المتسائلة، الساردة، قائمة في كلّ شعبٍ، وإنْ لم تحظ مأثوراته بالحفظ المكتوب والدّرس والتطوير.

وهذه نتيجة تشير إلى خلاف ما كان يزعمه بعض المستشرقين من أن **العرب** كجميع الأُمم الساميّة لا يعرفون القِصص المركّبة. وأن طبيعة الساميّ غير طبيعة الأُمم الأخرى من حيث الخيال والتصوّر، ونحو تلك من المقولات العتيقة التي روّج لها (رِنان Renan)، على سبيل المثال، وأضرابه، وردّدها بعض نقّادنا العرب في القرن العشرين[44].

(44) انظر: عبدالله بن أحمد الفيفي، "في البِنْيَة التأسيسيّة لنقدنا العربي الحديث: ("مقدمة لدراسة بلاغة العرب": نموذجًا)"، المجلّة الأردنيّة في اللغة العربيّة وآدابها، (جامعة مؤتة الأردنيّة)، م2، ع2، (ربيع الأول 1427هـ= نيسان 2006م)، ص ص 24- 27)؛ علي، جواد، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، (بيروت: دار العلم للملايين، 1973)، 1: 168.

إنّ هذه المادّة المقارنة تضع أمام الدارس جملةً من الرموز والأسئلة، التي تستتبع خطوة تالية من البحث، لعلّه ينهض بها لاحقًا، وربما وجد فيها غيرُه من الدارسين ما يغريه بذلك.